نظامنا الاجتماعى

(٨) ما لك وما عليك ايضاً

ما ينبغي لنا أن نحوّل اليراعة إلى موضوع آخر من دائرة نظامنا الاجتماعى قبل أن نتم أبحاث ذلك الموضوع الموجز فى مبانيه المطنب فى معانيه

ولم أر فى عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

ولقد سبقت كلمتنا فيما للانسان من حقوق الحياة والحرية والحيازة ولم نعهد القرّاء بها ببعيد

وها نحن أولاء نبين حق الإنسان في التربّي والتعلّم فنقول

لكل فرد الحق فى أن يتربّى جسماً وعقلاً وخلقاً كما يتعلم تعلّماً يسهل له اسباب الحياة والتعامل فى هذه الحياة الدنيا وفق استعداده وكفايته حتى يشبّ ويشيب مستقيماً صادقاً يحب الخير لغيره مثل ما يحبه لنفسه بل يعمل على تحقيقه لنفسه وغيره فلا يكون اثريّاً يجنى ثمار غيره ولا يحب ان تنال الناس من ثمراته بل يكون فى الاشتراكية كما فى العلاء المعرىّ القائل :

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

ولا يكون فى الأثرة وحبّ الذات كأبى فراس الحمدانى القائل :

معلّلتى بالوصل والموت دونه إذا مُتُّ ظمآناً فلا نزل القطر

واول واجب على الأمة المصرية إذا أرادت النهوض أن تقوم بتهذيب ابنائها وبناتها وتعليمهن فهم وهن فى هذين الحقين سواء ولله درّ حافظ إذ قال

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الاعراق

إى وربى إنه لحق فإنا إذا هذبنا بنتاً واحدة فى الحال فسوف نحصل على أسرة مهذبة فى المآل لان بنت اليوم ستكون أمّ رجال الغد وما الشعب الا مجموع أسر وإن شئت فقل مجموع بنات هن أمهات رجالنا

وان حق التربّى والتعلّم يقتضى واجباً معجّلاً على أمتنا وهو محو الأمّية من الأمة ولا يكون فقر الاكثرين منّا حائلاً دون تحقيق تلك الغاية الشريفة ما دامت الامة متعاونة على البرّ فالغنىّ منها يخدم الفقير بماله كما أن الفقير يخدم الغنى بأعماله وفى استطاعة مجلسنا النيابىّ ومجلس شيوخنا أن يبادروا بفرض الضرائب المتنوعة فى سبيل

جعل التعلّم الاولى اجباريًّا بالمجّان على الصنّاع والزرّاع والتجّار قبل ان يفرضها على الموسرين من ذوى الضياع والقصور ولقد كان فى طليعة النهضة اليابانية جعل التعلّم الاولى اجباريًّا سنة ١٨٩٠ وحسب القراءة والكتابة أن تفتح أمام كل فرد باب الحياة حسب كفايته وميله فيسجّل ما له وما عليه فى معاملاته . ونصيب مصر من التعلّم الاولى قليل مخجل بسبب قلة الاموال التى تنفق فى سبيله كما جاء فى تقرير « لجنة التعليم الاولى » فإن مجموع ما تنفقه الحكومة المصرية على التعليم يعادل ٢٪ من مجموع مصروفاتها على حين أن ما تنفقهُ رومانيا وبلغاريا مثلاً يعدل ١٠ ٪ وما تنفقهُ انجلترا يبلغ ١٣ ٪ وما تنفقهُ هذه الحكومات معظمهُ يصرف على التعليم الاولى وحدهُ أما فى مصر فلا يصرف عليه الا أقل من واحد فى الالف من مجموع المصروفات السنوية . وجاء فى هذا التقرير أيضاً (تدلّ الاحصاء الذى عمل فى مصر سنة ١٩٠٧ على ان ٩٦ ٪ من الوطنيين فى القطر لا يعرفون القراءة والكتابة ٩٢ ٪ من الذكور و ٧ و ٩٩ ٪ من الاناث اما فى الممالك الاخرى فقد أحصى من لا يستطيعون التوقيع باسمائهم على عقود الزواج فبلغت نسبتهم فى الدانمارك وقسم بروسيا من المانيا ١ ٪ وفى بريطانيا العظمى ٢ ٪ وفى هولاندة ٣ ٪ وفى فرنسا ٤ ٪ وفى ارلنده ٨ ٪ وفى ايطاليا ٣٨ ٪ واحصى الاميون فى الولايات المتحدة فبلغوا ٨ ٪ من عدد السكان وفيهم الزنوج وفى بلجيكا ١٣ ٪ وقال استاذنا الفضال أمين باشا سامى فى مجلس شيوخنا ان نسبة من حرمن التعلّم من البنات البالغات سن التعلّم الابتدائى والاولى هى ٩٤ ٪ . وهذا احصاء يؤلمنا جدّ الالم لانهُ اذا كان الجيل المصرى القادم سيكون رهيب ٩٤ ٪ من الامهات الجاهلات فإن سيل النهوض . قال رستو « كيف يتاح لامرأة حرمت نعمة الفكر والتبصر ان تربى أولادها ؟ ! كيف تعرف ما هو خيرهم او غير ما هو أولى بهم ؟ ! فكيف تغرس فيهم حب الفضائل التى تجهلها ؟ ! لعمرى إنها ستكون غير قادرة الا على تذليلهم ليكونوا سفهاء أو أن تسرهم فتجعلهم جبناء — انها ستجعل اولادها قروداً مقلدين أو خبثاء متشدقين . ولن تستطيع أبداً ان تجعل منهم أولاداً ذوى عقول سليمة أو خصال حميدة او مبادىء قويمة » . وان محمداً صلى الله عليه وسلم أمر بتعليم النساء وأمره طاعة فقال [علموهن كتاب الله] — ولا ريب فإن تعلمهن اياهُ يتطلب الوقوف على علوم اللسان العربي وآدابهِ والعقائد والفقه والتفسير والاصول والتاريخ ومظاهر الطبيعة وعلم النفس والاخلاق الى غير ذلك مما اشتمل عليه تصريحاً او تلميحاً لان القرآن الكريم فصل

شئون الدنيا والآخرة ووسع كل شيء علماً وليس المراد من تعلّمه استظهاره فقط على أنّ هذه الغاية الشريفة المقصودة من تعلّم القرآن الشريف بعيد على أبنائنا مطلبها الآن وهي أشد بُعداً على بناتنا غداً ولكنها كانت محققة في الدول الإسلامية كالأموية والعباسية بله عصر النبي والخلفاء الراشدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوا عن هذه الحميراء نصف العلم — ويعني بالحميراء عائشة بنت أبي بكر الصديق إحدى زوجاته — وكتب التاريخ والسير الاسلامية مملوءة بذكر النابغات من المسلمات في الشعر والنثر والفكاهات والملح والخطب والعلوم المختلفة من منقول ومعقول وكن قد برّزن على كثير من أفاضل رجال عصورهن وما اردنا بهذا الاستطراد إلا بيان أن الدين الاسلامي يأمر بتعليم البنات بدليل الحديث المذكور وما شرحناهُ الا لنبين للناس أقصى مدى يأمر به الرسول حيال تعليم البنات وقد قام السلف والخلف بتحقيق تلك الغاية فويل لمن يزعم ان الدين الاسلامي يقف حائلا في سبيل تعلّم البنات وويل لمن يزعم ان المرأة الشرقية غير أهل لأن تكون كأختها الغربية في التربّي والتعلّم وسائر الحقوق

لقد بلغت بنات الغرب مبلغاً عظيماً في الرقي العقلي والادبي فكان منهن المعلمات والطبيبات والنائبات الحائزات عليا الشهادات فتفوقن على كثير من الرجال

وهذه غاية نرى بنات مصر بعيدة عنها بمراحل عدة واقصى أمانينا الآن ان تعلّم البنت تعلماً أولياً وفق ما جاء في منهج التعليم الاولى اعني القراءة والكتابة وطرفاً من مبادىء العلوم الاولية ولكن تكون نسبة المتعلمات كنسبة المتعلمين ويجب ان تكون ١٠٠ ٪ حتى تباد الامية من الامة والله الموفق . هذه كلمتنا في وجوب تعميم التعلّم الأوليّ وجعله بالمجان . بيد اننا نرى الآن مدارس ابتدائية كثيرة اكثر من الحاجة في بلادنا حتى إن مجالس المديريات قد انشأت مدارس منها جمّة في القرى الكبيرة مع أن الواجب كان يقضي عليها بصرف اموال هذه المدارس الابتدائية على مدارس اولية تنشأ بدلها حتى تخف وطأة الامية وكان في استطاعة مجالس المديريات من سنة ١٩١٠ الى الآن ان تساعد الحكومة على محو الاميّة من الامّة اذا قصرت ميزانياتها على التعليم الاوليّ فحققت الفكرة الاساسية من ايجادها فالامة أحوج الى التعليم الاولى منها الى التعليم الابتدائي . انها لو كانت فعلت ذلك لكفتنا مئونة التفكر في اعداد الوسائل لمحو الامية وما أعوزتنا وسيلة سوى المال الجمّ . انها لو كانت قد فعلت ذلك لانقذت الامة من جهلها الاوليّ وهو دعامة التقهقر

ولنأ من الاستكثار من المدارس الابتدائية كثرة المدارس الثانوية من اميرية واهلية ولقد شعرت الامة بعد ان أدخلت ابناءها في المدارس الابتدائية وصرفتهم عن المدارس الاولية ودور الصناعات بضرورة انشاء مدارس ثانوية جديدة واهابوا بالحكومة يطالبونها بانشاء مدارس ثانوية في حاضرة كل مديرية تقريباً وفاتهم ان مطالبتهم الحكومة بهذا الحق يقتضي واجباً عليهم وهو مساعدة الحكومة في الانفاق على هذه المدارس ولكنهم لم يفعلوا

وهب أن الحكومة لبّت نداءهم فاكثرت من المدارس الثانوية فاذا تكون النتيجة بعد ان ينال أبناؤهم شهادة الدراسة الثانوية عقب ان يجتازوا هذه المرحلة في المدارس الاميرية والاهلية فانهم يتطلعون الى التعلّم العالي لاجتياز المرحلة الثالثة من التعلّم ففريق منهم تعوزه النفقات فيقعد عن هذا التعلّم ويكون عاطلاً حتى يجد مهنة يرتزق منها ولكثرة العاطلين من امثاله وهم يقدّرون بالآلاف تراهم يتهافتون على الاعمال الكتابية وغيرها بأجور قليلة وقل من ينالها والكثيرون منهم يبقون عاطلين يحرقون الأرض أسفاً وكمداً وحقداً على المجتمع الانساني

ويتضاعف حقدهم على الموسرين من امتهم فتتكون فيهم نزعة غير عادية تكون وخيمة العواقب عليهم وعلى أمتهم ويمنعهم هذا التعلّم الناقص ان يجتازوا سبيل العطلة المملة الى سبيل العمل في الزراعة والصناعة لانهم يأنفون ان يكونوا زملاء للصناع الاميين أو الذين لهم الماء بالقراءة والكتابة ولو كانت ارادتهم وعقولهم فوق وجداناتهم لفضلوا الصناعات اليدوية على البطالة والعطلة . هذا — ولو كانت لنا مستعمرات لوجدوا ابواباً مفتحة أمامهم في سُبل الرزق الحسن . ولو فطن هؤلاء الآباء الفقراء لمستقبل ابنائهم لصرفوهم بعد التعلّم الاولي الى دور الصناعة وحقول الزراعة ليتعلموا صناعة تقيهم الفقر ويستدرّوا خيراتها

أما الفريق الآخر وهم أبناء ذوي اليسار ومتوسطي الحال فيتزاحمون على ابواب المدارس العالية وهيهات ان تسعهم وسيضطر الاهالي الى مطالبة الحكومة بتوسيع نطاق التعليم العالي. والمستطاع عمله الآن أن تضاعف طلبة كل مدرسة عالية وان تنشأ مدرسة عالية للطبيبات يدخلها من يحملن شهادة الدراسة الثانوية فان الامة في حاجة اليهن لانهن آنس بالسيدات من غيرهن واحفظ للحرمات واكثر اتقاناً على الاعراض من الاطباء وان كنّا بهم نحسن الظنون ولو كانت الاسرات المصريات تجد طبيبات متعلمات كالاطباء بدل اولئك القابلات ما ادخلن في بيوتهن طبيباً ولا ذهبن

الى طبيب وواجب على مجلس النواب ومجلس الشيوخ ان يقررا ايجاد هذه المدرسة في باكورة اعمالها والحكومة السعدية الحاضرة لا تخيب لها رجاء ولا تعطل لها قراراً

وقد يقال ان مجال التعلّم العالي في جامعات الغرب واسع جداً فاذا ضاقت حجرات مدارسه بمصر الآن عن قبول طلابه جميعهم فلن تضيق حجرات الجامعات الغربية عن اكثرهم ولكن تعترضهم عقبتان

(١) لا يستطيع كل الآباء الانفاق على ابنائهم في الغرب في سبيل التعلم والمعيشة التي هي في بلادهم اكثر نفقة منها في بلادنا كما لا يخفى وها نحن أولاء نشاهد اولياء امور البعثات الاهلية من كبار المتمولين وهم وابناؤهم يعدون على أصابع اليد عدّا وبقي الاكثرون محرومين ارسال أبنائهم الى تلك الجامعات ولو وجدوا نطاق التعليم العالي في مصر فسيحاً خفّت عليهم مئونة النفقات فعلموا أبناءهم في مدارس الوطن تحت مراقبتهم

(٢) ان اللغة الانكليزية التي تعلمها المصريون لا تؤهلهم الى الاندماج في غير جامعات انجلترا والولايات المتحدة وبيروت وهي لا تحتمل هذا الجمّ الغفير والجيش العرمرم من الطلبة فلا بد من الاندماج في جامعات اخرى بالمانيا والنمسا وفرنسا وايطاليا وسويسره واسبانيا والبرتغال والسويد والنرويج والدانيمارك وهولانده وبلجيكا فيجب عليهم ان يتعلموا لغات هذه الامم تعلماً عالياً قبل ان يلجوا أبواب الجامعات وذلك يقتضي نفقات عظيمة تليها نفقات التعلّم العالي في تلك الجامعات هذا الى نفقات المعيشة وكانوا في غنية عن كل اولئك لو وجدوا مدارسنا العالية تسع أبناءهم الذين يقدرون بالالوف في كل عام ولا ريب أنهم يضيقون ذرعاً باحتمال اولئك النفقات الا انهم عاجزون وابناؤهم الى الغرب لا يسافرون ولا تستطيع ولن تستطيع الحكومة ان تلقي بهذه الجيوش من ابنائها في احضان الجامعات الغربية اذا توافرت لديها الرغبة في تنمية مداركهم وتأهيلهم تأهيلاً عظيماً للاعمال الجليلة في مستوى الحياة فيما بعد

وهب انهم تعلموا جميعاً التعلّم العالي ووجد الآباء من اموالهم بسطة في الرزق وسعة من العيش فاذا يعملون. ان الكثير منا نحن المصريين المتعلمين يجعل همه بعد ان يتم التعلّم محصوراً في التوظف بالحكومة وليس لديها من الاعمال ما يضطرها الى قبولهم في دواوينها وفروعها وليس لديها من المستعمرات قدر أنملة حتى ان ابواب السودان (وهو جزء من الوطن) قد سدت في وجوههم لاحلال السودانيين في المناصب الملكية محل المصريين ولاسباب اخرى لا محل لذكرها هنا وحسبنا أن نشير اليها وفي الاشارة ما يغني عن العبارة ولم يعتد المصري المتعلّم حتى اليوم ان يباشر اعمالاً اخرى حرة

بعيدة من الحكومة ولو عضه الفقر بنابه ما دام قد تعلم تعلماً عالياً فيكون كلاً على عشيرته واسرته بلاء على امته وحينئذ يفكر في اعمال غير مشروعة يكون ضررها على الامة اشد من ضررها على نفسه ونظامنا الاجتماعي يأبها ويمقتها كل المقت

وعندي ان اقرب حل تمكن لهذه المشكلات أن يعنى اولو الامر بتعميم التعلم الاولي حتى تمحى الامية من الامة كما اسلفنا وان ينصرف الفقراء بعد ذلك الى دور الصناعات وأهمها الزراعة وأن يوقفوا تيار انتشار المدارس الابتدائية والثانوية لانها سلم الى التعلم العالي وقد رأيت نتائجه المتولدة من كثرة طلابه وقلة مدارسه وضيق طرق الاعمال في مصر بعد ان يحصلوا على شهاداته التي اغلبها نظري لا عملي ويجب الاكثار من مدارس الصناعة والزراعة العالية فقد اكتظت البلاد بالمحامين على فقرها من الصناع المتعلمين حتى يباشر ابناؤنا الحرف المختلفة بثغور باسمة وقلوب هادئة وعيون قريرة وهذه وايم الله سر نجاح الغربيين وانا نؤمل في حكومتنا الرشيدة وامتنا المجيدة ومجلسي نوابنا وشيوخنا العمل على تحسين حال التعليم وجعله مثمراً أطيب الثمرات لتعيش الأسر عيشاً رغيداً وتجد كل نفس ابواب الرجاء مفتحة امامها لا تعترضها عقبات ولا تعثورها صعوبات

وتحيا النفس ما ملئت رجاء فان ذهب الرجاء فلا حياة

واذا كنا عظيمي التفاؤل بحياتنا الاستقلالية الحديثة فاكبر دليل يحقق تفاؤلنا ان يبادر مجلس نوابنا ومجلس شيوخنا بالقرارات الآتية انقاذاً للوطن وبنيه من السقوط للاسباب المذكورة آنفاً . وهذه هي القرارات المنتظرة

(١) فرض ضريبة ايراد على الصانع والزارع والتاجر والمالك والمتمول لتنفق هذه الضريبة في سبيل جعل التعلم الاولي اجباريًّا مجاناً

(٢) انشاء مدارس صناعية عالية ليدخلها فريق من حملة الشهادة الثانوية لان هذه المدارس كانت لكثرتها في الغرب من اهم اسباب العيش الرغد وسر تفوق الغربيين على الشرقيين

(٣) انشاء مدرسة عالية للطبيبات يدخلها حاملات شهادة الدراسة الثانوية للاسباب التي بيناها في هذا المقال والله الميسر

عبد الرحيم محمود
المدرس بمدرسة فؤاد الاول الثانوية والمعلمين الثانوية